

## أدب القصة في الاتحاد السوفيتي

### أثناء الحرب

لقد ظل صوت الشعب الروسى لا يسمع مدة أربع سنوات في غير البلاغات الرسمية التى لا يعرف كاتبها . أما الآن فقد أخذت السنا السوفيتية تطلعنا على الوجوه الحقيقية للمقاتلين في ميدان القتال وفي الأراضى المحتلة وفيما وراء ميدان القتال ، وغداً يستطيع كل إنسان أن يسمع صوت هذا الشعب حيا في مؤلفات كتّابه ؛ إذ أت الأدب الروسى كله ، أو يكاد يكون كله ، في زمن الحرب ، من آداب الحروب .

كان في ميدان القتال تسعمائة من الكتّاب ، هل هم مراسلون حربيون ؟ إن هذا الوصف لا يعبر عنهم ، فهم كانوا يقاتلون مع الجنود ، ويعيشون وكثيراً ما يموتون معهم . هكذا حدث من بين كثيرين للكاتب « ا. بولياكوف » وهكذا حدث للقصى « يورى كايوف » الذى نقلت عنه قصته الأولى « الباخرة دربنت حاملة البترول » إلى الفرنسية ( سنة ١٩٣٨ ) وسقط قتيلا في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤١ « بعد أن قاتل حتى النقطة الأخيرة من دمه » . لقد قال ستالين : « إن الرجل المثقف يجب أن يكون رجلا سياسياً » . ومعنى هذه الكلمة في تعبير أفلاطون « أن يكون عضواً عاملاً في الهيئة الاجتماعية » .

ربما دهش الشعب الفرنسى بعض الشيء لتعبئة الكتاب على هذه الصورة ؛ فهم سيتذكرون في اشتمزاز عادل أولئك الذين اتخذوا مرتين في هذا القرن دماء الآخرين وسيلة لإنشاء أدب بطولة له رواج في الأسواق . ولكن مما يسترعى النظر على العكس من ذلك في المؤلفات الروسية عن الحرب أن أبطال هذه المؤلفات ليسوا عادة أبطالاً ، ففيها مغامرات عجيبية . والمغامرات دائماً من طبيعة الحروب ، وسماها مما يثير الشجاعة في النفوس ، ولكن فيها أيضاً قصص الجبن والخيانة والآلام والتعاسة ، وفيها أكثر من ذلك ما ليس عظيماً ولا حقيراً ، فيها الحياة ومضايقات الأيام واليأس الذى لا يذكر اسمه ، والجندى الذى يذكر أنه

رجل . وقد قيل كل هذا وسط القتال بل وسط الهزيمة أحياناً ؛ إذ أن ما بهم ليس هو الأسطورة — فالأساطير تنمو من تلقاء نفسها — وإنما هو الحقيقة الصعبة . ظل الأدب الروسى حتى هذه الحرب متجهماً نحو دراسة واكتشاف الرجل الجديد الذى نشأ من أيام ثورة أكتوبر وُبِّبَ في هذا القالب الجديد . وفي هذه « الحرب الوطنية الكبرى » كما يسمونها في تلك البلاد تحول الرجل السوفيتى وخلق خلقاً جديداً إذا صح هذا التعبير . كيف انتقل من الكراهية النظرية للفاشية إلى الكراهية المجردة ثم إلى الاحتقار ثم إلى الاشمزاز ؟ وكيف تغلب على العدو وعلى نفسه ؟ هذا البحث باهتمام عن إجابات لهذه الأسئلة فضلاً عن مسائل عدة أخرى هو الاتجاه العام البارز في الأدب الروسى فى زمن الحرب . فهو أدب لا يكتفى بمجرد أقوال خطابية فى الوطنية المزيفة ، بل ليس هو أدب قصص كبيرة بالمعنى المفهوم ؛ فليست الساعة هى وقت الاتساق الواسع ، إن ما بهم هو التسجيل . وهكذا نشرت مؤلفات مثل كتاب « أوريل » وكتاب « ستالينجراد » ولا يمكن أن يصل التخصص والابتكار إلى أبعد من ذلك . فى أول الكتاب نصوص رسمية : نداءات وأوامر وبلاغات خاصة ثم رسائل من المقاتلين وصور وروايات تختلف من حيث القيمة الأدبية ؛ إذ أن بعضها موقع عليه بأسماء مجهولة أو غير معروفة ، وبعضها بأسماء مشاهير الكتاب ( إهرنبرج وتيخونوف وجورباتوف وجروسمان وفدييف . . . ) . وهذا مزيج قد يظهر مختلطاً فهل يجنى منه الأدب كثيراً ؟ ومع ذلك فكل هذه النظرات النافذة كثيراً أو قليلاً وكل هذه الصور الملونة كثيراً أو قليلاً ، أليست هى النظرة الشاملة للمجموع ، أليست هى الحقيقة ؟ -

لقد نشرت مقتطفات من مذكرات الطريق للضباط الألمان والجنود ، وجمع إهرنبرج فى مجموعته « مائة رسالة » خطابات تبادلها مع المقاتلين ، ووصف ا . بوليانوف وكان معلماً سياسياً وأحيط بفرقة فى يونية سنة ١٩٤٢ — فى « مذكرة الطريق » كيف تمكنت فرقة من العودة إلى الاتصال بالخطوط الروسية . وهذه المذكرات التى نشرت تحت عنوان « فيما وراء العدو » بعيدة عن أن تكون عملاً أدبياً لكاتب . فالأسلوب جاف وكثيراً ما تنقصه الألوان ولم يبذل جهد فى تأليف المجموع ، ومع ذلك ليس من شك فى أنه كبير القيمة لأن لغته هى لغة الحقيقة ، ونحن نقرأ الكتاب فنقول « إنه كالقصة » .



إن من واجب الفرنسي أن يضع إلبا إهرنبرج في الصف الأول من كتاب السوفيت ، لا لأنه أكبر الكتاب بل لأنه ظل أربع سنوات موضع سخط الصحافة الألمانية التي تصدر بجميع اللغات بما فيها الفرنسية ، ولأنه بينما الأصوات الرسمية والشبهية بالرسمية التي تزعم أنها فرنسية كانت تنهال عليه بالاهانات وتهين عن طريقه روسيا السوفيتية بأسرها ، أخذ يقوم بواجب خطير هو أن يسمع في بلاده صوت فرنسا الناهبة . ولسنا نستطيع أن نتكلم عن كتابه الذي ظهر عن « سقوط باريس » في بضعة أسطر ؛ ففي ذلك خيانة له . وسيثير هذا الكتاب مناقشات ؛ ونقداً فهو ليس بالكتاب الكامل ولكني أظن أنه ما من فرنسي يستطيع أن يتلو تلك القصة المؤلمة للسنوات المحزنة بين ١٩٣٥ و ١٩٤٠ دون أن يتأثر . وليس من حق أحد أن ينسى أن هذا الكتاب من وضع روسي . وكم من الفرنسيين يستطيع أن يضع كتاباً مماثلاً عن روسيا السوفيتية يدل على الذكاء ونفاذ البصيرة ؟ بل كم من الفرنسيين يستطيع أن يضع كتاباً مماثلاً عن فرنسا ؟ إن فيه أخطاء في التفصيلات وشيئاً من التظويل في مواضع ، وقد يعارض بعضه التفسير السياسي للحوادث ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر رنة الحقيقة في مجموعته وعمق الصور وصدقها ، وهذا هو السبب في نجاح الكتاب بروسيا نجاحاً عظيماً . فقد تعلم منه الروس ألا يخلطوا بين فرنسا وتلك الشرذمة من الخونة المسؤولة عمداً أو عن غير عمد عن يولييه ١٩٤٠ وعن نظام فيشي ، على أن ما يضايق القراء الفرنسيين إلى حد ما هو شيء من التناقض . فهذه القصة القائمة على حدود التاريخ ليست قصة تاريخية ، والشخصيات «التاريخية» لم تذكر إلا على سبيل السرد وليس لها أي دور هام ، ولكن المسيطرين على الحوادث فيها والصور «السياسية» التي درست في عناية ودقة إنما هي شخصيات من وضع الخيال مثل ثيار وتيرا وجرودل . وستظل هذه أمام الفرنسيين اشخاصاً غير حقيقية ، وهم يحاولون البحث عن سر الشخصيات الحقيقية الخفية وراءها . فهل وراءها شيء حقيقة ؟ . . . إنها ليست إلا رمزاً وخلاصات أحياناً ، والفرنسي لا يرتاح إلى هذه الصور المجردة .

لقد أخذ إهرنبرج في وضع تكملة « لسقوط باريس » هي « نهضة باريس » ،

على أنه كتب عدة مقالات وقصص صغيرة لاسيما مجموعة فرنسا سنة ١٩٤٣ ( وهو يقول إنه لم يغير في الوقائع غير الأسماء ) حيث رسم صوراً حقيقية وقوية لفرنسا الناهضة المنتصرة . ولقد قال لنا في مطلع سنة ١٩٤٥ « إنى لآتمنى ألا تنسى فرنسا مطلقاً » وإنا لنتمنى أيضاً ألا تنسى مطلقاً ما عليها من دن لآهرنبرج .



إن قراء كتابي « فوق نهر الدون الهادئ » و « إنقاذ الأراضى البائرة » سيقبلون في سرور على كتب ميشيل شولوكوف الجديدة ؛ فلعله يحج أكثر من أى شخص آخر فى أن يرسم للجندى الأحمر صورة إنسانية فى كتاب « علم الكراهية » وهو ليس إلا قصة طويلة ، وبصفة خاصة فى مؤلفه « إنهم قالوا من أجل الوطن » وهو كتاب كبير لم تظهر منه غير مقتبسات فى عدة صحف ومجلات ؛ فهو يصف الجنود فى أيام الارتداد المؤلمة وهم فى أعمالهم اليومية الحربية . وهم بلاريب أبطال ، ولكنهم أيضاً جنود بسطاء كأمثالهم فى العالم ساخرون أحياناً وغاضبون على الطائرات التى لا تظهر إلا متأخرة أو الرماة بالمدافع الذين يرمون إلى مسافات أبعد من خطوط العدو ، فهم رجال طاديون يصقون إذا ما هدا القتال إلى قطع الحجارة الرملية وهى تتساقط من جوانب الخنادق فيكون لها رنين كأنها نواقيس غير منظورة ، ثم إلى صوت صرصور صغير ، ثم إلى تنهد عميق أشبه بالعزف على وتر غليظ من أوتار قيثاره ، ثم إلى صياح السمان المعروف يقطع السكون بمعجزة .

وبإزاء هذه الصور « الفردية » المحددة للحرب نجد كتاباً مثل « أوريل » لقسطنطين سيمونوف ( الذى سوف نتكلم عنه عند الكلام عن الشعر ) يظهر لنا موقعة وهى فى أثناء سيرها . فالجنرال برايا نكنيكوف وهو من أبطال ستالينجراد ( وقد رقى هنالك ) يريد أن يؤلف فرقة من مقاتلى ستالينجراد وهو يلقن الحديشين دروس الدفاع الناجح العظيم ، فهو يريد أن يخلق « تقليداً لستالينجراد » يحذوه الناس ، وعلى مقربة من أوريل تقوم الموقعة ، فنحن لانرى غير شخص واحد هو الفرقة وكيف تعيش وكيف تقاتل كما يراها زعيمها ، وهى تعيش وتقاتل كأنما لها جسد مثل جسدنا . وهكذا يظل سير الموقعة واضحاً

حتى للشخص العادي ، دقيقاً بل حيّاً وقد بعثت فيه الحياة الاجتماعية للفرقة . ونرى نظرة مماثلة في « لننجراد » لنقولاً تيوخونوف وهو في شكل مذكرات يومية للمدينة من مايو سنة ١٩٤٢ إلى مايو سنة ١٩٤٣ وكل فصل منها عن شهر خاص ، ومجموع الكتاب يؤلف وجه المدينة بأسرها برماتها المنتخين وأطفالها حاملي البريد . ولقد عاش تيوخونوف بالمدينة أثناء حصارها ووضع كتاباً أسماه « قصص لننجراد » وفيها وصف للبطولة وغير البطولة وهي مع ذلك قصص مغامرات فردية . أما في كتاب « لننجراد » فتلك قصة المدينة مجتمعة وهي نخور بوقوفها في وجه المنطق ؛ وهي مدينة بطرس الأكبر ، ثم مدينة ثورة أكتوبر وهي الآن أمام العدو مدينة لنين التي لا تقهر وفيها بين صور أخرى — في فصل لننجراد في مايو سنة ١٩٤٣ — صورة المدينة ينظر إليها من الخليج في ليلة من ليالي ضربها بالقنابل ، وتلك صفحات من العظمة والشعر لا يمكن نسيانها . كان يعيش ويكتب في لننجراد غير تيوخونوف كاتب كبير هو ا . فدييف . ومما يسترعى النظر أنه إذا قابلنا بين كتابات الشاهدين وجدنا الأعمال نفسها والمواطف نفسها ، لا سيما ذلك الفخر للتمسك بالدفاع وإعادة الحياة إلى مدينة ظنّها الألمان محكوما عليها بالموت . فكتاب فدييف المسمى « لننجراد في أيام الحصار » كتب في ربيع سنة ١٩٤٢ بعد الشتاء الأول الذي كثر فيه الثلج ونزلت الكمية من الخبز للفرد إلى مائة وخمسين جراماً في اليوم . ويجب أن ننتظر قبل أن تصير هذه الصفحات من اليوميات المؤرخة بين ابريل ويولييه سنة ١٩٤٢ صفحات للانتصار . ولا ينسى فدييف أن يشرك النساء والاطفال مع الرجال ولكن ما يفسر لعليه ما يقومون به أكثر من أي شيء هو ما يشعر به الجميع من أن تلك المدينة دارهم الوحيدة العظيمة وأن السكان جميعاً يؤلفون أسرة كبيرة مشتركة .

وفي الجانب الآخر من روسيا كان هنالك مدينة عظيمة موضع نصر عظيم : ستالينجراد ، لقد مر فيها سائر كبار الكتاب الروسيين تقريباً وتركوا دراساتهم وقصصهم ، ونشر محل كولبير بالفرنسية رواية قسطنطين سيمونوف المسماة « أيام ستالينجراد ولياليها » . وتجب قراءة هذا المؤلف فهو يقص قصة وحدة من وحدات الجيش عبرت نهر الفولجا لنجدة الذين يقاتلون في المدينة ، وما كادت تصل في غسق الليل حتى اشتركت في جحيم قتال الشوارع . وكان عليها أن تسترد

ثلاثة من الدور وتحفظ بها ، وقد فعلت ، وظلت هذه الوحدة تصطبى هذا الجحيم أياماً وليالي ، وليس ما يخفف عن كاتب سابوروف حتى ذلك الحب الذي ازدهر ازدهاراً غريباً بينه وبين « أنيا » الممرضة ، ولم يؤد إلا لأن يعرف العاشقان الخوف . وفي ذات صباح سمع الذين بقوا في الحياة من تلك الوحدة شيئاً ! فنذ أربعة أيام كان قائدهم يستيقظ قبل ابتداء النهار ليستمع ويتأكد من أن « الشيء قد بدأ » وأخيراً استطاع أن يتحدث في التليفون إلى كاتب سابوروف ليسأله هل سمع هو أيضاً ، ويسأل سابوروف بدوره رجاله ويصغى الجيش بأسره ويستمع ويفهم أن الجحيم انتهى لأن « الشيء » قد بدأ « ولم تكدم تمض ساعة على استمرار هذا ، ولا يمكن أن نقدر الحياة بدون هذا الهزيم العجيب للمدافع »

أما فاسيلي جروسمان فهو أقرب إلى طريقة نقل أنباء الصحف في كتابه « ستالينجراد » . وهو نقل للأبناء يبلغ أحياناً في البعد عن الترميق درجة البلاغات الرسمية كما في مقاله المسمى : إدارة الهجوم الأساسي ( أو محور الجهود الأساسي ) . فهذا المقال ليس إلا وقائع وأرقاماً ولكن قصة الجهود التي بذلها الألمان في نوفمبر سنة ١٩٤٢ للقضاء على المدينة تصل في صورتها إلى قوة عجيبة ، وهي أكثر من أن تكون نموذجاً في عرض الخطط وإنما هي قصة مغامرة لم يعد للرجال فيها وجود على أنهم أفراد بل هي قصة القوى الهوجاء المجهولة التي تسير بالحرب . ولكن جروسمان يعرف كيف يحلل النفس الإنسانية ففي كتابه « الشعب خالد » مثلاً ولا سيما في قصته الجميلة « الحياة » يصف سبعة وعشرين جندياً أحيط بهم فالتجأوا إلى منجم في حوض الدوتز ، فأرسل الألمان شيخاً مع ثلاث نساء لايقناعهم بالخروج من المنجم وإلا انتقموا من المدينة ، فإذا الشيخ يبقى في المنجم وكان قديماً من عماله وغمرته السعادة للعودة إليه ، وهذا الشعور نحو المنجم هو شعور مضحك بعض الشيء ومؤثر للغاية في الوقت ذاته . وهو يقص انه زار هذا المنجم عند عودته من الأسرى في الحرب الأخرى قبل أن يزور امرأته لأنه كان يشعر بوحشة لايقطاعه عنه وهو يبكي الآن إذ عاد إليه ثم ينقذ اللاجئتين إذ يكتشف مخرجاً لهم ولكنه لا يخرج معهم بل يجد الموت في قاع هذا المنجم وهو موت يتقبله في هدوء وغبطة بل في نخر لأنه أجل ميتة كان يتمناها

كذلك نجد شخصيات مضحكة ومؤنزة في مجموعة ف . كافرين المساء « لم نعد كما كنا » مثل ذلك الجريح التعس « لاسوف » الذي كان يموت من الضيق أكثر من الجراح إذ لا يكتب إليه أحد رسائل . وفي ذات يوم تأتبه رسالة من مجهول تتبعها رسائل فتعود إليه الرغبة في الشفاء ويشقى وهو يحلم بأن التي ترأسه سيده كبيرة أو ممثلة سينما ، فإذا انقطعت الرسائل فهم أن كاتبها هي « لوكا » الممرضة .

وحدث أن مرضت بدورها مرضاً شديداً خطيراً ، وتعود ثانية فيعهد إليها في ان تكتب ردا على رسالة المرأة المجهولة ، ويحمر وجه الاثنين ويسكتان ، وفي المساء كان الجو صافياً ، فخرج « فلا سوف » يبحث عن « لوكا » فيفاجئها وهي تكتب رسالة الوداع له فهما عاشقان إذن ولكن كلاً منهما لا يعلم لماذا كان هذا الحب وكيف تولد . ونجد في المجموعة كلها مثل هذه الرقة . وقلنا يسمح المؤلف لنفسه في نظرة صغيرة ساخرة ( كما في قصة « قلب بسيط » ، وهو يتكلم أيضاً عن التحمل فالناس تحت ضغط الحرب يتغيرون فهو إلى جانب تلك الإحساسات التي لا محل لها بعض الشيء يصف رجالاً قتل فيهم الحرب كل إحساس أو رفعتهم إلى أعلى من نفوسهم الصغيرة فهم نوع واحد ؛ لأن كلاً منهم لا يستطيع الحياة إلا من أجل أمر أكبر من حياتهم . فهو يصف هؤلاء البحارة الذين يقاتلون لكي ينقذوا صورة من رسم « تيزيان » وهؤلاء الطيارين الذين يناضلون بعد أن سقطوا في البحر وهم على خشبتهم من أجل الحياة لأنهم « يعرفون بأن الواجب يقضى بالأيموتوا إذ أمرت القيادة صراحة بأن يمحروا على الحياة » .

ولنذكر في نهاية هذا العرض القصص الأساسية للحرب ، فنذكر ليونيد سوبوليف الذي كتب « حياة البحارة » وليونيد سولوفيف المراسل البحري في سباستوبول الذي رسم في بحارة البحر الأسود ( ١٩٤٢ ) وفي « إيفان نيكوبين » البحار الروسي ( سنة ١٩٣٤ ) صورة حية لمعيشة البحارة الروس في أثناء القتال

وظهر أخيراً كاتب شاب ( وقد ظهر مرتين لأنه استحق لقب بطل الاتحاد السوفيتي ) وهو جورج برزكو ، فقصته : « اللهب الحمراء » تدل على ثبات في الرواية وقدرة على التحليل تسترعى النظر وتعلق آمالاً كباراً على مؤلفها .



ليست الحرب هي مجرد الوقائع الكبيرة أو الصغيرة بل هي أيضا البلاد المحتلة والمصانع . ولم يهمل المؤلفون الروس في رسم هذين الوجهين من وجه الحرب وهما ربما كانا أقل بروزاً ، ولكنهما لا يقلان تأثيراً .

ولقد أدت السينما إلى أن عرف العالم قصة فناندا فاسيلفسكا الرائعة المسماة « قوس المطر » فليس من أحد شاهد هذه القصة يستطيع أن ينسى مأساة تلك القرية الصغيرة المحتلة . فهذه القرية إن هي إلا صورة مصغرة لجميع بلاد روسيا المحتلة . وإني لأعرف ما يمكن أن يوجه إليها من نقد إذ يقال أن القصة كاملة أكثر مما يجب ؛ فهي إذاً بعيدة عن الحقيقة ظاهرة العمل ولكن لا الأشخاص ولا الوقائع هي مجرد رموز ، ولنتذكر : ألم يكن الحال مثل ذلك في فرنسا ؟ ألم تعرف فرنسا تلك الأم المعذبة وأطفالها المرهقين ورهائنها بل هذا العمدة الخائن المتجبر أمام مواطنيه والضعيف الباكي أمام محاكميه . وذلك الألماني الذي يقتل أطفاله ويكتب رسائل حب لزوجته بينما هو يخونها مع فتاة يحقرها ؟ ألم يعرف الفرنسيون تلك الكراهية وتلك المتاعب وتلك الحماسة التي عرفها الروس ؟ أليست هذه هي الحقيقة نفسها .

أما الصورة التي يرسمها بوريس جورباتوف في روايته « الذين لا يقهرون » فهي أكثر كمالاً فهي صورة الجيش المرتد يخترق القرية ثم القرية في يد العدو وإجبار الكهول على العمل وهرب الابن الأسير الذي لا يريد « تاراس » الشيخ أن يعترف بأنه ابنه إذ فضل التسليم على الموت ولا سيما أولئك الكهول والنساء الذين حملوا على عربات اليد كل ملابسهم وما يملكون وهم يسرون بلا انقطاع نحو الأراضي التي لم يجتاحها العدو ليستطيعوا مبادلة مناعهم بشيء من الطعام . ولقد تركت أم وهي تهجر أبناءها قليلاً من البطاطس بعد أن قسمتها بينهم قسمة متساوية ، وفي كل يوم تحسب الأم حساب ما تبقى وفي يوم دل الحساب بأنه بقي لهم نصف المئونة فهي تعود إليهم خاوية اليدين أما رفاقها فلا يقولون شيئاً ولا يحاولون منعها بل يتابعون السير وهم على عقيدتهم في الأرض المباركة . وهكذا يقابل الشيخ « تاراس » ابنه الثاني وهو مكلف بمهمة وراء خطوط العدو

ويكون سرور الشيخ عظيماً إذ يعلم أن الجيش الأحمر لا يزال قائماً وهو يقاوم بعيداً نحو الشرق فهو إذن سليم ، ويقفل تاراس عائداً إلى قريته ليجد منزله وقد نهب وابنته وقد شنقت ولكن عقيدته لا تتناقص فهو من فريق الذين لا يقهرون ، وهذا ما يجعل القصة غير خانقة ، تلك العقيدة وذلك الإيمان الثابت الذي يقوم في وجه الحقائق ثم أحياناً عدم الاهتمام المعجب وذلك النسيان المدهش حين تسمع نغمة عزف « الأكورديون » وسط أسوأ المواقف .

أما القصص عن « ميدان القتال في المصانع » فليس فيها تجديد كبير في الأدب الروسي وهي تشمل قصص المصانع وقصص العمل التي ظهر مثالها في الأدب السوفيتي في قصة « الصلب المسقي » لنقولاً أوستروفسكي وفي « دون أن يسترد أنفاسه » وهي لأيليا إهرنبرج ، فهي ترسم صورة الرجل الذي تريد روسيا الجديدة أن تخلقه وهو قادر على أن يعيش من أجل العظمة الصناعية للاتحاد السوفيتي كما يعيش بعض الناس من أجل حب كبير أو عمل حربي عظيم . فرواية مارييتا ساجنيان المسماة « مجهودات الحرب في الأورال » وأنا كارافيون المسماة « سادة العمل الستاليني » وناتان ريباك « الأسلحة معنا » واركادي برفنتز « التجربة » كلها ترمي إلى هذا ، والأخيرة قصة مصنع للطائرات في « أوكرين » أنشئ في أثناء مشروعات الخمس سنوات وكان من الواجب نقله إلى الشرق . ولهذا المصنع وهب رئيس المهندسين « دوبنكو » حياته ، فهو ابن عامل ارتفع في سلم الحياة بمجهوره وهذا المصنع مصنعه وكل طائرة يخرجها هي جزء منه كما لو كانت شعراً أو صورة . والمصنع الآن هو تحت نار القنابل ويجب فك الآلات لنقلها قطعة قطعة . وعرف دوبنكو « تجربة الهدم المرة : وقد تقلصت من نفسه في ذلك الوقت غريزة الإنشاء » وكذلك حزن العمال على هدم آلاتهم وترك مقتنياتهم ولا يستطيع أحدهم « كومنكو » أن يبتعد عن مصنعه ( إذ ليس له في العالم غيره بعد أن أهدت أسرته ) ويموت في المصنع عند ما يدمر ما لا يمكن نقله من بناياته وآلاته ثم يكون وصف « الأورال » والمصنع الجديد والزملاء الجديدين الذين يتجمعون في البيوت كحي يدبروا مكاناً للمهاجرين ، فهل هذا المصنع جديد ؟ لا ، إنه المصنع نفسه فيه الحماسة ذاتها والرجال أنفسهم والمجهود الكبير للإنشاء والحرب .

تستطيع أن نهز أكتافنا إنها قصة تنتهي نهاية حسنة ، قصة دعائية ، بلا ريب ولكنها قصة جيدة ، قصة تقاؤل وإيمان ، وقد قام مؤلفها عند كتابتها بواجبه كقاتل - لنا أن نقول ذلك ولكن الحوادث أيدته فيما ذهب إليه .

منه برنار ماركيز

تلقاها عن مجلة «بارو» الفرنسية حسن محمود